

المقاربة النقدية في ضوء المنهج البنوي التكويني عند عبد الحميد بورايو، قصة غزوة الخندق أنموذجاً
The Critical approach in light of the structural for formative approach of
Abdel Hamid Bourayou, the story of the Battle the of the Trench as a model

ط.د. عبد الصمد حمداوي¹، أ.د. الصديق حاج أحمد²

Hamdaoui Abdessamed¹, Hadj Ahmad Saddik²

1 جامعة أحمد درايعية أدرار (الجزائر)، ham.samad@uni-adrar.edu.dz

2 جامعة أحمد درايعية أدرار (الجزائر)، ziwanihadsaddik@univ-adrar.edu.dz

مخبر فضاء الصحراء في مدونة السرد الجزائري

تاريخ النشر: 2025/11/30

تاريخ القبول: 2025/10/06

تاريخ الاستلام: 2025/04/07

الملخص: تسعى هذه الورقة البحثية الموسومة ب/المقاربة النقدية في ضوء المنهج البنوي التكويني عند عبد الحميد بورايو قصة غزوة الخندق أنموذجاً، بغية الوقوف على تجربته النقدية وكيف كانت مقارنته لهذا النص الأدبي الشعبي الذي له علاقة بالأدب الشعبي. وعلي هذا الأساس ثم طرح بعض التساؤلات التي فرضت نفسها في هذا السياق، وهي: هل استطاع عبد الحميد بورايو استنتاج بنيات النص الشعبي والوصول إلى سبر أغواره؟ وما هي الخطوات التحليلية التي اتبعها فيه في مقارنته قصة غزوة الخندق؟ وفي الأخير ثم ذكر أهم النتائج المتوصل إليها. كلمات المفتاحية: المقاربة، النقدية، البنوية، عبد الحميد بورايو، غزوة الخندق.

Abstract

This research paper, entitled "The Critical Approach in Light of the Structuralist-Formative Methodology of Abdel Hamid Bourayou, using the story the Battle of the Trench as a model, seeks to examine his critical experience and how he approached this popular literary text, which is related to popular literature.

On This basis, some guest ions were raised the that imposed themselves in this context, namely: Was Abdel Hamid Bourayou able to interrogate the structures of the popular text and reach its depths? What are the analytical steps that he followed in his approach to the story of the Battle of the Trench? Finally, mentioned the most important results reached.

Keywords: approach, criticism, structuralism, Abdel Hamid Bourayou, Battle of the Trench.

المؤلف المرسل: عبد الصمد حمداوي، الإيميل: ham.samad@uni-adrar.edu.dz

1. مقدمة:

سعت المناهج النقدية بمختلف أنواعها لفهم وإدراك النص الأدبي؛ وهذا الذي عوّل عليه المنهج البنيوي بغية الوقوف عند معمارية النصوص السردية على مختلف أشكالها، حيث يبحث " البنائيون في الواقع الإنساني عن مظاهر الثبات والاستقرار التي يمكن أن ترتكن إليها المعرفة العلمية الحقيقية" (فضل، 1980م، صفحة 125).

وفي هذا الإطار، حيث خصص عبد الحميد بورايو في كتابه الموسوم: القصص الشعبي في منطقة بسكرة، دراسة ميدانية، لتطبيق المنهج البنيوي على القصص الشعبية، وكانت قصة غزوة الخندق أول نص الذي قام بمقارنته.

حدد الناقد الهدف من الدراسة التطبيقية التي أجراها في الفصل الثالث من كتابه المذكور سلفاً، وفي هذا الصدد يقول "هدفنا الكشف عن الهيكل البنائي للقصص، وتعبير آخر البنية التركيبية تمثل الجوهر الثابت خلق مختلف أشكال القصص موضوع الدراسة، وذلك بالإتباع المنهج التحليلي والتركيب في نفس الوقت، مع التركيز على مختلف المستويات المورفولوجي، والتركيبية والدلالية،..." (بورايو، 1986 م، صفحة 137).

ونلاحظ مما وضحه عبد الحميد بورايو في النص السابق، أنه وضع الخطوط العريضة أو بعبارة أخرى الطريقة التي حل بها النص الأدبي، مع مراعاة الظروف الاجتماعية التي أفرزته، كونه استند على آليات البنيوية التكوينية، بيد أنه لم يصرح بها، بل اكتفى بذكر المنهج البنيوي، فدراسته تقوم على التحليل المورفولوجي والتركيب، أي دراسة مكونات النص والعلاقات الموجودة بينهما، وهي المهمة التي قامت عليها البنيوية الشكلانية، ويطلق على هذه العملية المنهجية من منظور البنيوية التكوينية، الفهم، ثم تأتي مرحلة الثانية وهي الشرح والتفسير.

حيث يتناول الفهم بنية النص في ذاته في حين يقوم الشرح بوضع هذه البنية ضمن بنية أكبر في البنية الاجتماعية (وغليسي، 2002م، صفحة 121).

وقبل الخوض في صلب الموضوع نطرح بعض التساؤلات التي نراها جديرة بأن تطرح في هذا السياق، وهي: هل استطاع عبد الحميد بورايو استنتاج بنيات النص الشعبي والوصول إلى سبر أغواره؟ وما هي الخطوات التحليلية التي اتبعها في مقارنته لقصة غزوة الخندق؟. أما بالنسبة للمنهج المتبع في معالجة الموضوع فهي مقارنة وصفية تحليلية.

2. الدراسة البنيوية المحيطة لقصة غزوة الخندق

تحكي هذه القصة البطولية عن طغيان أحد رجال قريش، وهو عمرو بن ود العمري الذي كان حاكماً لمكة، وكان لا يكف عن مضايقة المسلمين وإلحاق الضرر بهم في كل مرة، حيث تعقب أثرهم بعد هجرتهم إلى المدينة،

وأثناء هذه المرحلة الصعبة قامت غزوة الأحزاب المشهورة بغزوة الخندق، وانتهت القصة بقتله وانهزام جيشه، وقيل أنه قتل على يد علي رضي الله عنه في هذه المعركة. (بورايو، 1986 م، صفحة 140).

وذكر الناقد الخطوات التحليلية التي اتبعها في تحليل الحكاية، حيث قسم النص إلى أقسامه السياقية الكبرى، والمتمثلة في الاستهلال، والبداية والمنت والنهاية، والخاتمة، وعلل الناقد بذلك كون النص يندرج في خانة القصة الشعبية التي كان يتداولونها الناس فيها بينهم عن طريق الرواة السير المغازي، ولها طقوسها الخاصة في سردها.

أ - الاستهلال : تكمن وظيفة الاستهلال في تهيئة الجو العام من أجل التلقي الجيد للحكاية، وقد يبدأ الراوي روايته بقطعة شعرية حكيمة، يشيد فيها بمجموعة من القيم الإيجابية مثل: العفة، والخلق الجميل، والعدل وغيرها من الصفات الحميدة، وفي المقابل يذكر مجموعة من القيم السلبية من أجل التحذير منها وذمها، مثل: الإساءة للآخرين، والظلم، والأخلاق السيئة وغيرها من الصفات الذميمة.

وعلى إثر ذكر براعة الاستهلال في تهيئة نفوس المتلقين، حيث يذكر فيها الصفات الحميدة مثل العدل والعفة والخلق الجميل (...) والتي تنسب للمؤمنين، عكس الصفات السيئة مثل: الظلم، والاعتداء على الآخرين بغير حق والتي تنسب للكافرين، لأن الصراع يدور حول القيم المتعارضة والمتناقضة، ثم يأتي بقطعة شعرية في مدح النبي صل الله عليه وسلم والتغني بمناقب، ويذكر برسائلته التي جاء من أجلها وهي نشر العدل بين الناس.

ب - بداية القصة : يؤكد الناقد بأن القصة في بدايتها، تقرر بوجود قيمة سلبية في المجتمع المكي بصفة عامة، وهو الظلم والاستبداد الذي يستلزم إزالته نهائيا.

فمنذ البداية "أن عمرو بن ود العمري حاكم مدينة مكة رجل طاغية، فتقرر بذلك قيمة سلبية، وهي الظلم، وبعبارة أخرى تقرر استلابا يعيشه المجتمع المكي، (وجود الشر) وبالتالي تمثل بداية القصة وظيفه الشر الرئيسي الذي يأتي بعد ذلك في متن القصة، ونهايتها من أجل إزالته" (بورايو، 1986 م، صفحة 141).

ت - متن القصة : وهو المضمون الأساسي لقصة غزوة الخندق، حيث قام الناقد بتحليل متن القصة تحليلًا تفصيليًا واعتماده على آليات البنيوية، وقسم النص إلى مقطوعات، وحاول رصد التعاقدات والوظائف لكل مقطوعة على حدة، وهذا ما سنتناوله في باقي العناصر.

1 - المقطوعة الأولى : ويمكن تلخيصها في النقاط الآتية :

1 - 1 تعهد عمرو بن ود العمري بأن يقتل كل من يقف عند باب بيته، وأعلن ذلك كتابة على الباب بمثابة إعلان على ذلك.

1 - 2 خرج عمرو في رحلته واستدانته مبلغا من المال من عند الأعرابي، ووعدته على أن يرجع له المبلغ عندما يعود إلى البيت، ولكنه رفض الخروج من البيت، ولهذا لا يستطيع الأعرابي أن يحصل منه على حقه من المال.

1 - 3 يطلب الأعرابي المساعدة من أهل مكة، فيشرون عليه بالجوء إلى محمد صل الله عليه وسلم، وهدفهم من هذا هو إلحاق الضرر بالرسول الله صل الله عليه وسلم، وهنا يكون اختبار رد فعله، وكذلك رد فعل عمرو.

1 - 4 يحكي الأعرابي للرسول صل الله عليه وسلم عما حصل له مع عمرو من الظلم والاعتداء عليه، ويطلب منه المساعدة، فيتعهد له بأن يسترد له حقه، لكن شريطة أن يدخل الإسلام، فوافق الأعرابي على ذلك مباشرة دون تردد.

1 - 5 يذهب الرسول (ص) مع الأعرابي إلى بيت عمرو للمطالبة بالمال، بيد أن هذا الأخير يأخذ سيفه لقتل كل من يجده أمام الباب، لكنه يفاجأ وهو يفتح الباب برأس جمل يريد إتهامه، فيأخذه الرعب والخوف الشديد، فيستسلم للأمر ويرد المال إلى الأعرابي (بورايو، 1986 م، صفحة 142).

ومن خلال المقطوعة الأولى التي عرضها عبد الحميد بورايو؛ حيث نجده أنه حاول رسم مخطط سير الأحداث وبناء الأفعال لكل شخصية في القصة وهو كالتالي : خروج - وساطة من أجل إزالة الشر - تلقي مساعدة، مواجهة - انتصار - استعلامات (معلومات)، نقض التعاقد، (أ)، تنفيذ تعاقد (ب)، تنفيذ تعاقد (ج)، إزالة الشر، (تعاق د)، عودة.

وبهذا انتهى الناقد بتحديد وتحليل المقطوعة الأولى بالتفصيل كما سبق؛ كذلك حدد الناقد العلاقات الموجودة في المقطوعة.

حيث أشار إلى البنية الوظيفية الأولى التي تأخذ العلاقات الشكل التالي:

مرسل (فساد النظام الاجتماعي) - موضوع الظلم - معرفة مرسل إليه (مجتمع مكة).

مساعد (رجال مكة) - الفاعل عمرو - قدرة - معارض (الأعرابي). (بورايو، 1986 م، صفحة 155).

وللكشف عن الجانب الدلالي في صورته المصغرة؛ لا بد من إبراز المشاهد بشكل بسيط، حيث نجد في البنية الوظيفية الأولى، تمثل الفاعل في عمرو ب ود العمري حاكم مكة، وتمثل الموضوع في الظلم الذي يمارسه على رعيته بدون شفقة، والذي سلطه على الأعرابي، ثم بعد ذلك حصل بين الطرفين النزعة العدوانية وغيرها من الشحاء ودافع الانتقام، أما المرسل فيتمثل في فساد القيم الاجتماعية الذي كان سائدا في مكة قبل الإسلام، ويمثل المرسل إليه في مجتمع مكة. بينما (رجال مكة) أي رجال قريش كانت لهم القدرة على بقاء الوضع كما كان، والتمثل في الظلم والسيطرة وأخذ حقوق الآخرين بالقوة وغيرها.

كما وضح أن العلاقات التي تربط بين هذه الأطراف جميعا تنحصر في أنماط دلالية محددة، فالتقابل مرسل/ مرسل إليه يعني نمط المعرفة، والتقابل مساعد/ معارض، يعني نمط القدرة. والتقابل فاعل/ موضوع يعني نمط الإرادة، وأضاف في البنية الوظيفية الثانية العلاقات نفسها مع تبادل مواقع الأدوار.

وفي البنية الوظيفية الثانية تأخذ هذه العلاقات الشكل الآتي:

مرسل (الإسلام) — موضوع الحق — مرسل إليه (مجتمع مكة).

مساعد (القدرة الإلهية) — فاعل الرسول ص — معارض (كفار قريش).

ونجد في البنية الوظيفية الثانية نفس العلاقات الموجودة في القصة، مع تبادل الأدوار والمواقع، حيث يصبح الموضوع هو الحق، والمتمثل في الإسلام، مما يحدث تغييرا في بقية الأدوار.

وفي ضوء هذا التحليل للمقطوعة الأولى وصل الناقد على أنها قصة متكاملة، تقوم على بنيتين سواء على مستوى الوحدات الوظيفية أو على مستوى القائمين بالفعل أي الأدوار، وترتبط بالمقطوعة التي تليها وهكذا دواليك.

وهكذا نستنتج بأن الناقد لم يقوم بتحليل سطحي للقصة، بل تجاوز إلى التحليل العميق الذي يفكك بنيات النص من زوايا مختلفة؛ وكذلك حاول ربط القيم المجتمعية بفعل القص لكونه مرتبط بالمجتمع ومكرس لقيمه، ومعتقداته ورؤيته للعالم.

وعلى هذا الأساس حاول تأويل القصص بالاستناد إلى السياق المنتج لها "فالبحث عن الدلالة معناه اللجوء إلى التأويل الذي هو إنتاج المعنى". (فراج، 2003م، صفحة 30). وهذا كله من خلال تفكيك شفرات النص الأدبي بقراءة تأويلية متأنية.

المقطوعة الثانية : لخص الناقد وقائع هذه المقطوعة على النحو الآتي:

1 - تدور وقائع حول ردة فعل رجال قريش من موقف عمرو واستفسارهم عن السبب الذي جعله يخضع لمحمد صلى الله عليه وسلم، وبعدها ذكر لهم رأى بخصوص رأس البعير. فقالوا له أن ما رآه ما هو إلا سحر، فيستطيع أن يتغلب عليه عن طريق المصارعة، لأنه أقوى منه جسما، ويسترجع منه المبلغ الذي أخذه منه، فذهب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وعرض عليه رهانا، إن غلب هو (عمرو) يرجع المال الذي أخذه الأعرابي، وفي حالة غلب الرسول صلى الله عليه وسلم يتخلى عمرو عن مطالبته بهذا المال ولا يعترض سبيله مرة أخرى. (... (بورايو، 1986 م، صفحة 156).

ومن خلال سرد أحداث القصة (للمقطوعة الثانية) نكتشف أن عمرو كان يسعى لتحقيق غرض الكفار للمجتمع المكي، وذلك عن طريق إخضاع الرسول صلى الله عليه وسلم للسيطرة وإلحاق الضرر بالمسلمين. وهذه القصة تقدم صورة عامة التي كانت راسخة عند المجتمع في مكة، وكذلك كيف كانت رؤيتهم للعالم الخارجي.

وفي هذا الصدد نجد الحالة التي عليها مجتمع مكة من فساد في القيم، وتشبث رجال قريش بكفرهم، ويروجون بين الناس أن محمد صلى الله عليه وسلم ساحر، وبهذا تكون العلاقة الرابطة بين هؤلاء الرجال والكفر علاقة إرادة، حيث يسعون لتحريض عمرو على الرسول صل الله عليه وسلم للقضاء عليه، وبالمقابل هناك قوة تمنع من تحقيق رغبة الكفار وهي: القوة المتمثلة في الرسول صلى الله عليه وسلم وقدرته. (بوراوي، 1986 م، صفحة 162)

وبناء على ما سبق ذكره، نتوصل أن الناقد قام بتحليل المقطوعة بالطريقة نفسها التي اعتمدها في المقطوعة

الأولى، حيث بين مكوناتها والتعاقدات الموجودة فيها، والشكل يوضح البنية العملية للمقطوعة وتتمثل فيما يلي :

المرسل الكفار من رجال قريش — الموضوع السيطرة — مرسل إليه الرسول (ص).

المساعدة (القوة المادية) — الفاعل عمرو — المعارض (القوة المعنوية).

وبناء على ما تقدم، فكفار قريش في هذه المرحلة يستعملون (عمرو) كوسيلة يثبتون عن طريقها للرسول بأن لهم قوة لا تقهر، (باعتبارهم قوة كفر)، ولهم السيطرة على مصائر الناس في مجتمع مكة، ولهذا قدموا المساندة الكلية لعمرو على تحقيق هذه الرغبة. بينما تقف القوة المعنوية التي يحصل عليها الرسول صل الله عليه وسلم عن طريق الصلاة والمناجاة مع خالقه في وجه هذه الإرادة السيئة.

وبهذا يوضح الشكل المذكور أعلاه، أن العلاقات المنتظمة داخل المقطوعة الثانية والتي تتميز بدورها على استقلال ذاتي وتتوفر على شروط القصة الكاملة.

المقطوعة الثالثة: تتضمن هذه المقطوعة أحداث أخرى تتعلق بالحكاية؛ وهي عبارة عن استمرار الأحداث وتطورها. ومخلص الأحداث كالتالي:

أوحى جبريل عليه السلام بخبر هزيمة عمرو فعلمه كل الناس في مكة، وطلب من الرسول (ص) أن يتوجه إلى ربه، وذلك من أجل أن ينسى الناس الحادثة، مقابل أن لا يتعرض سبيله مرة أخرى. ثم جاء علي بن أبي طالب وقصد معبد الأصنام لكي يحطمها، فاعترض أمامه عمرو فحدث بينهما صراع شديد، فكانت الغلبة لعلي بن أبي طالب، فتوعد عمرو بالانتقام على ما حصل له، ولكن الهدف الذي يسعى إليه فيه مغامرة كبيرة من كل النواحي، (...). (بوراوي، 1986 م، صفحة 163).

وبعد ذلك حدد عبد الحميد بورايو مخطط سير الأحداث وبناء الأفعال في القصة التي لخصها في المقطوعة السابقة، والتمثلة في (خروج، استعلامات، معلومات، اكتشاف، وقوع شر، تلقى مساعدة، معركة، انتصار، وساطة، إزالة شر، عقاب، استعلامات، معلومات تعاقب،).

وبهذا الشكل انتهى الناقد بتحليل هذه المقطوعة مثلما تعامل مع المقطوعتين السابقتين، رصد التعاقدات والعلاقات الموجودة فيها.

المقطوعة الرابعة: ذكر عبد الحميد بورايو أحداث هذه المقطوعة وهي الأخيرة التي ختم بها تحليله البنيوي، نوضح ذلك في الفقرة التالية:

هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، فبنتهز عمرو الفرصة ويعود إلى مكة من أجل استعادة منصبه الذي سلب منه، ولما علم الخليفة بذلك، فحاول أن يدبر له مكيدة، حيث اتفق مع ابنته على خطة لتنفيذها. حيث يستضيف الحاكم "عمرو" ويجعل ابنته على تترين من أجل إغرائه، وعندما رآها أبدى عمرو رغبته بالزواج منها، فتشترط عليه الفتاة أن يقتل جماعة من الصحابة ويقدم أعضاءهم مهرا لها، وينزل جبريل على الرسول صلى الله عليه وسلم فيخبره بقدوم عمرو لمحاربتة، وينقل له أمرا من الله يقضى بأن يقوم بحفر الخندق حول المدينة ويعده بالنصر. (...). وكانت النهاية بالانهزام جيش الكفار. (بورايو، 1986 م، صفحة 170).

وبهذه المقطوعة ينتهي متن القصة.

ث - نهاية القصة : وهي عبارة عن خلاصة نهائية توضح الصورة الكاملة لقصة غزوة الخندق، وفي هذا الإطار، يقول عبد الحميد بورايو "تنتهي غزوة الخندق بقتل عمرو بن و العمري، وتكون بذلك قد انتهت بزوال الشر الذي نصت بدايتها عليه، ويمثل متن القصة مجموعة كبيرة من الوساطات التي قامت كمحاولة لإزالة هذا الشر إلى أن تمت إزالته نهائيا في نهاية الغزوة، وتنتمتع الغزوة رغم اشتغالها على عدد من القصص بوحدة عضوية، بحيث يمكن أن نقول أنها تتألف من متتالية واحدة هي: وقوع الشر، وساطة، إزالة الشر" (بورايو، 1986 م، صفحة 181).

والملاحظ أن متن القصة هو عبارة عن وساطة بين الوضعية التي بدأت بها والوضعية النهائية التي انتهت إليها، وعملية إزالة الأذى والشر الذي كان في نهاية القصة، هو بمثابة تنويع لجميع عمليات الإزالة التي انتهت بها كل قصة من قصص غزوة الخندق. ويعد تعبيراً عن النقص الذي كان موجود في مجتمع مكة المتمثل في الكفر، وحل محله القضاء عليه عن طريق الرسالة المحمدية والإيمان.

ج - خاتمة الغزوة: وهي آخر أقسام القصة التي يختم بها الراوي روايته، وفيها يطلب المغفرة لجميع

الحاضرين، ومشيدا بالإنسان المؤمن وبصفاته الحميدة، ويترجم على مؤلف القصة، وي بعدها يصل على النبي صلى الله عليه وسلم.

أما بالنسبة للحيز المكاني لقصة غزوة الخندق؛ حيث ينحصر في أربعة مجالات مكانية جرت فيها الوقائع وهي: (مكة، البادية، المدينة، العالم الآخر)، وجاء حضور هذه الأمكنة خاضعا لمبدئي المخالفة والوساطة الذين سبق أن رأيناهما عند الحديث دخول الشخصوس مسرح أحداث القصة.

وكان للانتقال المكاني دور بارز في بنية الحكاية، فالنقل الأول الذي ظهر في القصة بين مجتمع مكة وحاكمه، بسبب تعهد الأخير بقتل من يقف عند بابه، ثم التوسط فيه عن طريق الأعرابي، الذي التقى به عمرو خارج مكة وعقد معه تعاقدا، (أي أخذ منه مبلغا من المال استدانة). فالانفصال الذي حصل للشخصية الرئيسية عن المكان، مجال الوقائع، لعب دورا منذ بداية الغزوة في تطوير الأحداث والانتقال بها من مستوى إلى آخر.

وفيما يخص البناء الزمني للقصة؛ حيث قام الناقد بتقسيم النص إلى مجموعة من المقاطع، ثم انتقل إلى البحث عن أنماط العلاقات التي توسط بين هذه الوحدات، فوجد أن تلك الوحدات تنظم في جميع مستوياتها حسب نوعين من العلاقات، وهما علاقات منطقية، ويقصد بها العلاقات السببية بين وحدات القصة، فكل وحدة في القصة تمثل سببا أو نتيجة لوحدة أخرى. وأما بالنسبة للنوع الثاني: فيتمثل في العلاقات الزمنية التي ترتبط تلك الوحدات المتسلسلة وفق نظام زمني معين.

2.2 الدراسة السوسولوجية لقصة غزوة الخندق

بعد الدراسة الداخلية للنص التي قام بها عبد الحميد بورايو، حيث كشف عن الوحدة التركيبية لقصة غزوة الخندق، وأطلق عليها مرحلة الفهم، ثم انتقل إلى المرحلة الثانية في التحليل وهي: عملية الشرح والتفسير، أو بعبارة أخرى ربط النص بسياقه الاجتماعي.

وفي هذا الصدد يوضح "يحق لنا أن ننقل الآن إلى جانب آخر من الدراسة يتمثل في مرحلة شرح النص عن طريق بيان علاقة بنيته بالبناء الاجتماعي (...)" (بورايو، 1986 م، صفحة 196).

وعلاوة على ما سبق، شرح الناقد النص باعتباره بنية مدمجة في بنية كبرى وهي البنية الاجتماعية، وبهذا فهو بصدد الإقرار بالطبيعة الاجتماعية للقصة، ودورها الفعال الذي تؤديه في المجتمع.

وتأكيدا على هذا الطرح فالأدب انعكاسات اجتماعية عديدة، وهو في حد ذاته انعكاسا اجتماعيا حتى في أكثر موضوعاته خصوصية. فهو نشاط اجتماعي قبل أن يكون نشاطا لغويا، حتى اللغة تفسر من منظور اجتماعي قبل أن تفسر من منظور آخر. (فراج، 2003م، صفحة 96).

ومن هنا، نستطيع القول أن القصة الشعبية لها علاقة وطيدة بالوعي الجمعي، والراوي والمتلقي كلاهما يساهمان في تطور أحداث القصة، لأنهما ينتميان لبيئة واحدة، وهذا نتيجة التأثير والتأثير، وبالإضافة إلى الظروف الاجتماعية والسياسية التي تعيشها المنطقة المنتجة لها.

طرح الناقد التساؤلات التالية: إلى أي حد تؤدي البنية الدالة للغزوة وظيفتها في المجتمع البسكري؟ وبأي طريقة تؤدي هذه الوظيفة؟ وإلى أي حد تعتبر معبرة عن سلوك له مغزى في محيط حياة الجماعة في موقف معين؟. وفي هذا السياق، حاول الناقد أن يتطرق إلى أسباب التماسك النص الأدبي، ففي بداية الأمر ذكر دور موهبة الراوي في هذا التماسك، وبالإضافة إلى تماسك المجتمع البسكري وحفاظه على عاداته وتقاليده، انعكس تلقائيا على البنية النصية للأثر الأدبي.

حيث كان يعيش في عزلته عن التيارات الوافدة من أوروبا في تلك الحقبة، ولعل السبب الذي أبقي هذا المجتمع منعزلا عن كل تأثير أجنبي - فضلا عن موقعها الجغرافي - هو سياسة الاستعمار الفرنسي والمتمثل في عزل الجنوب الجزائري عن الشمال (...). (بورايو، 1986 م، صفحة 197)

يرى عبد الحميد بورايو بأن قصة غزوة الخندق تمثل عملا أدبيا ذا طابع ثقافي من جهة، ومن جهة أخرى تعكس رؤية للعالم، وفي هذا الصدد يقول "لأن غزوة الخندق باعتبارها عملا أدبيا ذا طابع ثقافي، تقدم كيانا متماسكا يعكس رؤية للعالم، منبثقة من الجماعة الشعبية التي أبدعت هذا الأثر الأدبي" (بورايو، 1986 م، صفحة 197).

ورؤية العالم في أساسها نابعة من الوعي الضمير الجمعي مبلور في شكل قيم وتصورات وطموحات، حيث يسعى في البحث عن العلاقة القائمة بين النص الأدبي والمجتمع.

ويجدر الإشارة إلى مفهوم رؤية العالم وعلاقتها بالأثر الأدبي، حيث تكون العلاقة وطيدة بين الحياة الاجتماعية والإبداع الأدبي على مستوى البنية الذهنية؛ وتتمثل في نشاط مشترك لجماعة أو فئة ما حول موقف أو رؤية ما، ولهذا نجد البنية الذهنية هي عبارة عن نتاج التصورات الجمعية المجسدة في ثقافة الحياة الاجتماعية عامة.

ومن خلال قصة غزوة الخندق يتضح للمتلقي/ القارئ أن موقف مجتمع البسكري اتجاه الاستعمار الفرنسي واحد، ولذلك كانت المقاومة قوية من خلال الحفاظ على القيم والعادات والتقاليد الأصلية لديهم.

ولقد وضع عبد الحميد بورايو رؤية العالم لقصة غزوة الخندق من منظور المجتمع البسكري، حيث تتمثل في مجموعة من القيم يأتي في مقدمتها الوعي بثنائية العالم، وذكرها في النقاط التالية:

1 - مؤمن / كافر: حيث تنظر الجماعة الشعبية إلى أ الكائنات تنقسم إلى كائنات مؤمنة بالله ورسوله، وكائنات غير مؤمنة بهما، فالبشر فريقان مؤمن وكافر، والجن وحتى الحيوانات.

2 - إلهي / بشري: الكون قائم على أساس وجود بشر في الأرض، وإله في السماء يرعاهم ويراقب أعمالهم.

3 - دنيا / آخرة: حيث تدرك الجماعة الشعبية وجود عالمين، عالم يحيون فيه، وعالم آخر يرحلون إليه بعد وفاتهم.

4 - الظلم / العدل: الناس في تعاملهم فيما بينهم قد يتعاملون على أساس الإنصاف، فيأخذ كل حقه، أو على أساس الظلم، حيث يتعرض أحد الطرفين المتعاملين للقهر والأذى.

5 - الجهل / العلم: حيث أن الإنسان يولد على فطرته جاهلا، لكن إيمانه ومعرفته لأصول الدين وما جاء في القرآن الكريم تجعله يعلم الحقيقة.

6 - الخير / الشر: ويتم تقييم الثنائيات السابقة على أساس هذين القيمتين، فالإيمان وما هو إلهي والآخرة والعدل والعلم جميعا هي خير، أما الشر فيتمثل في ما هو بشري، وما هو دنيوي، والظلم والجهل. (بورايو، 1986 م، صفحة 198).

والملاحظ أن الثنائيات المتقابلة التي ذكرها الناقد في مقارنته للقصة المذكورة، لها ما يعادلها في الواقع الاجتماعي للجماعة الشعبية، حيث تنتسب القيم الإيجابية للمسلمين الجزائريين، كالعدل والعلم والإيمان والخير، لأنهم يؤمنون بالرسالة المحمدية. وبعبارة أخرى يخضعون للسلطة الدينية، وعلى هذا الأساس نجدهم يعزفون عن الدنيا ويرجون خيرا في الآخرة، بينما القيم السلبية تنسب للفرنسيين الكفرة كالجهل والظلم والشر.

وفي ضوء ما سبق ذكره، حيث يمثل موقف الجماعة الشعبية في مثل هذا الواقع المعادل الموضوعي للموقف الافتتاحي في كل قصة من قصص غزوة الخندق، ويمثل طموحها ورؤيتها للمستقبل الموقف الختامي في هذه القصص، (...) ويسعى الضمير الجمعي الذي تعبر عنه غزوة الخندق إلى تغيير هذا الوضع ليأخذ صورته الطبيعية عندما يتحرر المجتمع من السيطرة الأجنبية (...). (بورايو، 1986 م، صفحة 199).

وهكذا نستنتج أن قصة غزوة الخندق تعبر عن شعور جمعي ورؤية مشتركة للعالم، ويرجع ذلك حسب الناقد - إلى الفترة التاريخية التي مرت بها الجزائر، والموقف هنا، موقف تحرر وطني الذي ساهم فيه العنصر الديني لتوحيد جميع أطراف المجتمع الجزائري، بغية الحصول على الحرية والاستقلال، مما يجعل الصراع الطبقي لم يظهر في البنية القصصية.

كذلك نجد في غزوة الخندق تعبيراً عن نقلة حضارية عرفت بها البشرية، وتحولاً ثقافياً في السلوك البشري. ومما تجدر ملاحظته انحياز الرواية لمرحلة جديدة، واتخاذها موقف المجد لها، ويتجلى ذلك واضحاً في الرؤية التي تعرض منها الأحداث، ولا سيما في الاستهلال وبداية الغزوة هذا من جهة، ومن جهة أخرى تضيف الحكاية قيمة روحية بأن هناك عالم جميل ومثالي بعد الموت، وهذا هو مصير الإنسان في هذه الحياة.

4- خاتمة:

ومن خلال هذه الورقة البحثية نتوصل إلى أهم النتائج المتوصل إليها والتي نوجزها كالتالي:

- 1 - وبذلك نخلص أن الناقد قام بتجسيد بعض المفاهيم البنيوية التكوينية لمقارنته لقصة غزوة الخندق، حيث اشتغل على تحديد البنية الداخلية للنص، وهي مرحلة الفهم، ثم انتقل إلى المستوى الثاني وهو ربط النص بسياقاته الاجتماعية، وبهذا حقق الشرح والتفسير وكان على دراية ووعي بالمنهج التي استند عليه.
- 2 - استطاع عبد الحميد بورايو أن يستثمر في آليات البنيوية التكوينية للبحث عن الدلالة الاجتماعية لقصة غزوة الخندق، منطلقاً من جملة من المفاهيم تعمل على كشف نظام بناء نص الحكاية، وتحليل بصورة واضحة على البنية المتشابهة في الواقع الاجتماعي، وهنا تكمن براعة الناقد في التحليل والكشف عن الدلالات الموجودة في النص سواء كانت ظاهرة أو مضمرة.
- 3- القصة الشعبية المتمثلة في قصة غزوة الخندق، تعبر عن الشعور الجمعي الذي تتشكل منه رؤية مشتركة للعالم على حسب ما ذهب إليه الناقد، ويعود ذلك إلى الفترة التاريخية التي مرت بها الجزائر، من أحداث وواقع تتعلق بالظلم والقهر والسيطرة إبان الاحتلال.

قائمة المراجع:

1. أحمد فراج. (2003م). *الثقافة والعولمة، صراع الهويات والتحديات*. الهيئة العامة لقصور الثقافة، كتاب أبحاث المؤتمر الرابع لإقليم غرب ووسط الدلتا .
2. صلاح فضل. (1980م). *نظرية البنائية في النقد الأدبي* (المجلد ط1). مصر: دار الشروق.
3. عبد الحميد بورايو. (1986 م). *القصص الشعبي في منطقة بسكرة، دراسة ميدانية* (المجلد ط 1). الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
4. يوسف وغليسي. (2002م). *النقد الجزائري المعاصر من اللاتسونية إلى الألسنية* (المجلد ط). الجزائر: المؤسسة المطبعية للفنون المطبعية.